

لن تراني

بقلم: ايمن مسعود

هكذا رد الله - سبحانه وتعالى - على كلمته: سيدنا موسى - عليه السلام - الذي كان يطمح إلى الجمال لا الإيمان.. فموسى كلم الله؛ لم يكن يبحث عن دليل إيماني على وجود الله، بقدر ما كان يبحث عن الاستمتاع بالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.. وموسى كان يعلم يقيناً أنه غير مؤهل لهذه النظرة إلى الله، فطلب أن «يُريَهُ» الله، فقال: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ»، أي: اجعلني مؤهلاً للنظر إليك!

وعلى هذا فلا تكون الرؤية إلا منحة وعطية من الله تعالى لعباده الذين اصطفاهم بعد أن أصبحوا مؤهلين لذلك.. وعباد الله الذين مَنَّ عليهم بذلك كثيرون، منهم من يعرفهم الناس من كراماتهم، ومنهم من يستخفي عن الناس!! منهم من تغلب الفرحة عقله فيهم على وجهه، ومنهم من يسكن إلى العبادة ليستزيد قرباً! منهم من اكتفى بالإشارة، ومنهم من لم يرضَ إلا بالقوسين، كما ارتفع محمد - صلى الله عليه وسلم -، فكان «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى».

هنا وفي هذا المقام، لم يَرَ محمد - صلى الله عليه وسلم - ربه، ولكنه رأى به! قال حين سئل عن ذلك: «نور أُنِّي أراه؟!»، ولكنه كان بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع بها... كان في هذه الرؤية خلاص من التعلق بما سوى الله، وكان فيها رضى بالله عمن سواه.. لم يكن أفضل منها ينتشل محمداً من ضغوط الحياة سوى هذه النظرة إلى المقام الجليل، وأن ينغمس في هذا النور الذي لا ظل له!

إن هذه الحالة ليست قاصرة على النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - وإن كان المقام له وحده، فلم يحرم الله - تعالى - عباده من هذا الشعور، فأراهم آياته، ليكتفي بها من يكتفي، وينجذب من ينجذب!! فسار في طريقه علماء؛ استدلوا عليه، وسار في طريقه عارفون استدلوا به!! وشتان ما بين الفريقين، وكلاهما على خير.

ما بين فريق يقف باللغة عند حدود اللفظ، ويقف بالمعنى عند حدود النص، وفريق آخر يتجاوز به الوصل ما يمنعه الواقع، فيقول لله دون أن يشرح، فهو يؤمن أن الله تعالى جَلَّ عن أن يُشرح له، فهو يعلم السر وأخفى.. ينطق عن الله بما يراه العابرون على حدود اللفظ تجاوزاً، وهو لا يرى إلا الكشف عن أغوار النفس، والاستزادة من النور، والانغماس فيه!

لا مكان في هذا المقام للخطيئة اللفظية بين الواصل والموصول فيه، فالواصل يعلم مقصد الموصول، بل هو من يمنحه اللغة التي يقول بها، وهو من يكشف أو يخفي، فقد يقف اثنان على مسافة واحدة من القرب، فلا يريان الرؤية ذاتها!! إنه لا رؤية إلا بالله! ولا وصل إلا به.. فلا يرى الراي بجتهاده ولا بذاته ولا بمؤهلاته... إنما يرى بقبول الله له، ويمدى هذا القبول يرتقي وتنكشف له الحقيقة، فيستقر أو ينجذب، ويرى ويُرى غيره.. أو يرى فينسى.. أو يرى فيمنعه ما رآه عن رؤية غيره!

إذا أردت أن ترى الله، فاسأله، واعلم أن الطريق التي سلكها غيرك فوصل ليست بالضرورة طريقك التي يجب أن تسلكها، فرمما تسلكها وتضل، فقد سلكها غيرك بمؤهلاته هو، وليس بمؤهلاتك أنت!! ابحث إذن في داخلك عن الله، وخاطبه «كأنك تراه»!

اللهم ارزقنا رؤيتك